أرفيو وإيريديس.. كرستوف جلوك

Christoph Gluck ORFEO ED EURIDICE

تعتبر هذه الأوبرا خير ما يمثل اتجاه الموسيقي الألماني «كرستوف جلوك» Christoph Gluck في أن يجعل من الأوبرا مزيجا متوافقا من الموسيقى والدراما والبالية. وقد بنيت على قصة خرافية كتبها باللغة الإيطالية – وفقا لما كان يجري في ذلك العصر – الكاتب الإيطالي «كالزابيجي» Calzabigi، وقدمت لأول مرة على مسرح فيينا بالنمسا عام ١٧٦٢.

شخصيات الأوبرا:

أرفيو: مغني Orefeo

آمور: إله الحب Amor

ايريدس: زوجة أورفيو Euridice

آلهة

أرواح

حراس معبد الحب

زمن الأوبرا: خرافي

المكان: اليونان والعالم السفلي

الفصل الأول

المنظر - مقبرة إيريديس

انطفأت جذوة الحياة في «إيريديس» الشابة على غير انتظار، فأذهلت هذه الصدمة المفجعة زوجها المغني «أرفيو» وانقضت قدرته على الغناء، وأصبح كل ما يقوى على التفوه به هو كلمة «إيريديس»، يطلقها بين الحين والحين في يأس قاتل وحسرة موجعة.

ويتجمع لفيف من الشبان والفتيات حول قبر الزوجة الراحلة لينشدوا أنغاما حزينة. وفي النهاية يجد أرفيو من الكلمات ما يسعفه على التعبير عن حزنه، فيقول وهو ينشج بالبكاء:

– أصدقائي! إن نحيبكم يزيد من ألمي! هيا نمجد إيريديس بأن ننثر فوق قبرها الزهور!

وفي سكون مطبق رهيب يقوم الأصدقاء بعمل الشعائر التقليدية التي تقام للأموات. فتنثر الزهور حول القبر، وتطفأ المشاعل، ثم يمضي المحتفلون وقد أغرقوا في حزن عميق.

ويغادر أرفيو المكان بخطوات وئيدة متثاقلة وهو ينتحب ويردد اسم إيريديس عسى أن تستجيب لندائه وتقوم من بين الأموات. غير أنه لا

يسمع إلا رجع صوته يدوى صارخا كئيبا في أعماق الوادي. ويصيح الزوج المفجوع:

– أيتها الآلهة عديمة الرحمة! لا بد أن أرى عروسي مرة أخرى! ولسوف لا يحول بيني وبينها حائل حتى ولو كان أبواب الجحيم!

وهنا يسمع صوتا واضحا آتيا من أعلى يناديه:

– إذن فأذهب!

وينظر أرفيو في دهشة ليرى «آمور» إله الحب منتصبا أمامه وقد أمسك قيثارة ذهبية.

ويأمر إله الحب أرفيو قائلا:

– انزل إلى العالم السفلي، واجعل صوتك وهذه القيثارة يؤثران في حكام الأموات. ولسوف تعود ومعك إيريديس! ويسأل أرفيو في ضراعة:

– أواه.. مربي! ماذا على أن أفعل بعد ذلك؟

فيجيب اله الحب محذرا:

– عليك ألا تحملق في زوجتك قبل أن تصل إلى الأرض، وإلا فقدتها إلى الأبد!

وهنا يقول أرفيو في نجواه:

– وا حسرتاه! كم سيكون حزني عندما أجد إيريديس ولا أستطيع النظر إليها! ولكن الإلهة قد تكلمت، ولسوف أكون شجاعا!

ثم يقبض على القيثارة الذهبية ويمضى وسط البرق والرعد باحثا عن الطريق إلى العالم السفلي.

الفصل الثاني

المنظر - أواب العالم السفلي

تحتشد الأرواح الشريرة أمام أبواب الموت. وهي حينما تثور لا يقوى على كبح جماحها شيء، وعندما تهدأ لتستريح يخيم عليها يأس قاتم، وفجأة يغزو مملكة الظلام صوت ينبعث من قيثارة قريبة. إن الزوج البائس قد وصل!

ويقف أوفيو على مرتفع شاهق وينظر إلى الأعماق السحيقة الممتدة من تحته ثم يتوسل قائلا:

– أيتها الآلهة، دعيني أمر! اشمليني برحمتك!

ويأتيه الرد مصحوبا بقصف رعد شديد:

– كلا!

ويحاول أرفيو أن يخفف من غضب الآلهة قائلا:

– إني أعلم أنك تقاسين مرارة التعذيب، وإن مصائرك قاسية. غير أن مصيري كذلك أقسى من أن يحتمل. فلقد فقدت من أحبها!

وفي النهاية تلين قلوب الآلهة أمام توسلات أرفيو المتلاحقة، فتصدر أمرها قائلة:

– افتحوا الأبواب، واسمحوا له بأن يدخل إلى عالم الأموات!

ويتفقد أرفيو الطريق أمامه، ثم ينزل إلى حيث توجد الأرواح الشريرة وهي تزأر، وتحوم الأرواح حوله وهي تأتي بحركات مروعة مخيفة، ولكن أرفيو لا يحرك ساكنا.

ويحتمل الزوج المنكوب كل أذى في سبيل الوصول إلى زوجته!

الفصل الثالث

المنظر - حقول الجنة

تقوم الأرواح الطاهرة بعدة رقصات في نشوة ومرح، وتغني إحدى الأرواح أغنية عن بهجة الموت بعد أن تعلن قائلة:

– لقد تبددت أحزاننا، ولم يتبق لنا سوى النعيم!

وبينا الحقول يشع منها الجذل والسعادة، يظهر أرفيو وقد ارتسمت على محياه علامات الدهشة فيصيح متسائلا:

– ما أنقى هذا الضوء! وأي مروج باسمة هذه! هل حقا سأجد حبيبتي هنا؟

وتصيح أصوات لا يتبين مصدرها منادية:

– أرفيو! إن إيريديس قريبة منك!

وهنا يتقدم شبح على وجهه خمار تحيط به أرواح طاهرة. إنه شبح إيريديس!

ويحاول أرفيو جاهدا أن يسيطر على الفرح والألم اللذين يعتملان في صدره في آن واحد فيحول نظره عن زوجته.

وإذ ترفع الأرواح الحجاب عن وجه إيريديس، يمسك أرفيو يدها وتبدأ رحلتهما إلى الأرض.

الفصل الرابع

المنظر الأول - كهف في الطريق إلى الأرض

تفشل إرادة أرفيو في اجتياز الامتحان القاسي الذي فرضته عليه الآلهة؛ ففي طريقه عائدا مع زوجته من مملكة الموت، تؤنبه إيريديس طوال الوقت قائلة:

– لماذا أنت غير مكترث هكذا؟ واحسر تاه! لقد كنت أكثر سعادة في مملكة الأموات!

ولا يقوى أرفيو على احتمال لوم زوجته، فيأخذها بين يديه ويضمها إلى صدره. وفي الحال يظهر على وجهها شحوب الموت، ثم تهمس إليه وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة:

– وداعا!... ألا فاذكر إيريديس!

ويصيح أرفيو منتحبا:

– لقد فاضت روحها! ماذا عساي أن أفعل بدونها!

ثم يعقد عزمه على ألا يعيش من بعدها، فيهم برفع خنجره ليطعن به نفسه. ولكن صوتا ينبعث من بين السحب لا يلبث أن يستوقفه. إنه صوت أمور – إله الحب – الذي ظهر لينهيه عن فعلته صائحا:

– كفى! فلقد تحملت أكثر مما يجب، وسوف تكون لك إيريديس!

ويصدر إله الحب إشارة تنهض على أثرها إيريديس من على الأرض وتعانق زوجها. ولا يسع أرفيو إزاء هذا الفضل الذي غمره به آمور إلا أن يعلن أنه وهب نفسه لعبادة «آمور» الرحيم!

المنظر الثاني - حدائق معبد الحب

في مكان مرتفع من حديقة نضرة غناء يقع معبد الحب، وفوق درجاته – التي يحف بها من كلا الجانبين أشجار السرو – يقف تلاميذ آمور ينتظرون مقدمه. وفي النهاية يصل إله الحب متقدما أرفيو وزوجته إيريديس.

وما أن تقع أعين التلاميذ على الحبيبين اللذين وحد بينهما الحب مرة ثانية، حتى ينخرطوا في رقصات ثملة مرحة رائعة. وبينا الزوج المخلص وزوجته يكللان بالأزهار، يعلن التلاميذ عن إخلاصهم ووفائهم إلى ألههم فيقولون منشدين:

– يا إله الحب، دام ملكك إلى الأبد!..

ستار